

التاريخ في سبر أبطار

أحمد عرابي

أما أن التاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح
وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية ؟

للأستاذ محمود الحفيف

—•••••—



كذلك تناقشنا في الاصلاحات القضائية ، وكانت دوائر القضاء يعمها الفساد ؛ وكذلك تكلمنا في نظم تربية الذكور والإناث ، وفي طريقة الانتخاب للبرلمان الجديد ومسألة الرقيق ، وقد أطل عرابي الكلام في هذه المسألة الأخيرة ، وكان الموظفون الأجانب في مصلحة الرقيق قد خشوا أن يتناول الاقتصاد في المرتبات مراكمهم ، ومن ثم كانوا يزعمون أن إحياء الإسلام معناه إحياء الاسترقاق . وقد أظهر لي عرابي ضعف هذا الزعم وما فيه من الاقتراء ، وبين لي أنه ليس في مصر من يود أن يكون له عبيد غير أمراء البيت الخديوي والباشوات الأتراك الذين تعودوا استعباد الفلاحين ، وأن الاصلاحات الجديدة سوف توطد المساواة بين الناس مهما اختلفوا في الجنس واللون والدين ، وليس مع هذا الإصلاح محل للاسترقاق . أما فيما يختص بضرورة الاستعداد للحرب محتملة — ذلك الاستعداد الذي يجب أن يشغل ذهن وزير الحرب فقد تكلم عنه بصراحة وقوة فقال إن الحكومة الوطنية لا تزرع سلاحها ولا تخفضه حتى يوطد الحكم الدستوري ونمترف أوروبا به . وكان يرجو ألا يتجاوز مربوط وزارة الحرب الذي اتفق عليه مع كلفن وإلا يضطر إلى زيادة عدد رجال الجيش على ثمانية عشر ألفاً . أما إذا — التهديد بالتدخل فلا مناص له من اتباع الطريقة البروسية أي التجنيد العام لمدة قصيرة ليتمكن من إنشاء احتياطي كبير ، وقد سأل عن رأيي في احتمال وقوع الحرب فقلت له صراحة إنني بما علمته من اجتهاد كلفن في إحداث التدخل وبما أراه من الهياج الذي بثه في الصحف اعتبر أن الخطر حقيقي . وإنني ذاهب إلى انجلترا لا شيء إلا لأضع حداً لحالة الكذب التي تارت في الصحف ، وستكون مهمتي هناك نشر الدعوة للسلام وحسن النية ، وفي الوقت نفسه لم أستطع أن أنصح له إلا بالثبات والحزم في موقفه وبأن أفضل وسيلة لضمان السلم إنما هي امتداد للدفاع . وقلت إن شر أعداء مصر ليس الحكومات الأوروبية بل المالين الأوروبيين وإن هؤلاء لا بد أن يفكروا طويلاً قبل أن يعرضوا مصالحهم للخطر بالحض على إثارة حرب طويلة ذات نفقات طائلة ، وقل أن يسمى أحد إلى أمة مسلحة مستعدة للدفاع عن حقوقها . وأذكر أني اقتبست من شعر لورد بيرون قوله : (لا تأمن الفرنج على الحرية) فوافق عرابي

ولنعد إلى حديث بلنت مع عرابي ، ولما كان هذا الحديث يكشف لنا عن نواح كثيرة من تلك الشخصية التي نغني بدراستها نرى الخير في أن نورده على تمامه كما جاء في مذكرات مستر بلنت قال : « وقد نفذ كثير من تلك الاصلاحات بعد أن عثرى للموظفين البريطانيين في عهد الاحتلال ، وادعى لورد كرومر أنه مبتكر كثير منها . فمن ذلك إلغاء السخرة التي كان يربها الباشوات الترك على الفلاحين ، واحتكار بيع الماء في مدة الفيضان ، وحماية الفلاحين من الرايين اليونانيين الذين أنشبوأ فيهم الأظفار بسبب فقدان السدل في المحاكم المختلطة . ومن هذه الاصلاحات أيضاً إنشاء بنك زراعي تشرف عليه الحكومة ، وهذا هو البنك الذي باهى به كثير المحرم اللورد كرومر ... »

الحكومة العثمانية نحوه ونحو عرشه ؛ وهو فزع مما يشاع من دسائس الأمير عبد الحليم ، بل ودسائس أبيه ومسايعه في مصر والآستانة على يد أعوانه ؛ ثم هو فضلاً عن هذا كله قذبات تحت سيطرة الأجانب وعلى الأخص الإنجليز منهم فما يقطع أمراً حتى يوافقون عليه بل لا يخطو خطوة حتى يرى رأيهم فيها ومن كان هذا شأنه في موقف كهذا الموقف الدقيق الذي كانت تقفه مصر من أعضائها يومئذ كان مثل الراعي أحاطت الضواري بقطيعه فابرجو أكثر من أن ينجو هو بنفسه ولو هلك القطيع جميعاً .

وكانت الدولتان كما سلف القول تراوغ كتابهما الأخرى ، وتغافلها بغية الظفر بالفريسة وحدها ؛ وهذه هي حقيقة السياسة الخارجية التي لا تفهم على وجهها الحق دون الانتباه إليها ، وإن كان كرومر ينق في كتابه نقياً قاطعاً قائلاً إنه كان ذا صلة وثيقة برجال ذلك العهد جميعاً . ولو أن هذا كان موقف إنجلترا ما منعه شيء عن الاعتراف به .

ولكن نقي كرومر هذا لا يغير الحقائق . وحسبنا أن يذكر في هذا الصدد ما كتبه ريناخ أحد أصدقاء غمبتا عن سياسة الدولتين قال : « إن الرأي العام في إنجلترا قد وقع تحت تأثير بعض رجال حزب الشورى الذين اعتقدوا أن خير ما يعمل هو استمجال الحوادث جهد الطاقة أملاً في إيجاد فرصة لدخول وادى النيل دون فرنسا »

حسبنا تلك العبارة التي حاول كرومر أن يفندوها بما ذكرنا من نقي فلم يستطع أن يأتي بدليل أو شبه دليل على صحة رأيه فلن يكون النقي المجرد مما ينهض دليلاً يؤخذ به في أمر من الأمور وكان غمبتا من أشد أعداء مصر بل من أشد أعداء الإسلام قاطبة ، وكان هذا الرجل يهودياً على صلة برجال المال من الدائنين ؛ وكان يحيط به في باريس ريفرز ولسن ونوبار يوحيان إليه بما يريان ؛ وكان بطبعه ممن يميلون إلى اللجوء إلى القوة في كل ما يتعلق بالشرق والشرقيين

وكان هذا الوزير يحاول أن يدفع إنجلترا لتأخذ بسياسته ولكن جرائقيل راح يراوغه مظهرآ له أن خيرها في أن يتفقا ، وفي الوقت نفسه كان يحذر عاقبة التدخل المسلح في شؤون مصر سواء أ كان ذلك من جانب إحدى الدولتين أم من جانبيهما

على ذلك ، وكانت هذه فيما أظن آخر كلماتنا ، وقد وعدته أن أعود وأنضم إلى الوطنيين إذا شاء القضاء ووقع السوء »

وهذا الكلام من جانب ذلك الفلاح الذي تخضعت عنه مصر في تلك السنين السود في غنى عن كل تعليق . وما ندرى ماذا يرى فيه أولئك الذين أرادوا ألا يجعلوا لذلك الرجل مكاناً بين أبطال قرمهم ، بل أولئك الذين يسلكونه في المجرمين الخائنين لوطنهم فيرتكبون بذلك من ضروب الإجرام ما لن يزال عالقاً بأعناقهم حتى يروا الحق فيصدقوا به وهم راضون ؟

ماذا يرى في هذا الحديث أولئك الذين تنفر أسماعهم من اسم عرابي ، وأولئك الذين يضحكون من جهله ويسخرون من تطاوله ؟ على أننا لا نعبأ بما يقولون وما يهزأون فإننا لنستشف من هذا الحديث وطنية رجل ونلمس فيه عزيمة رجل على خير ما تكون الوطنية وأحسن ما تكون العزيمة . ولئن كان لرجل من ذوى الجاه والثراء أن يفخر بصنيع أداه إلى بني قومه ، فأجدر منه بالفخر كل الفخر رجل درج من عش الفاقة وبرز من عامة الناس ففعل ما لم يفعله غيره من أكابر الناس ١ وإن هذا الرجل الذي يستشرف القلم في غيطة وتغفر إلى تاريخه ليقدم لنا بما فعل الدليل الناصع والبرهان القاطع على أن تربة هذا الوادى الذي أنبتت بالأمن الفراعين لا تزال تثبت أولى العزم والبأس من الرجال ؛ وأن يبين هؤلاء الذين يميلون للفؤوس في غيظاتها ويعملون سامتين صابرين في الحجير والزمهرير رجالاً كاللحم المحبوه لو أزيح عنه ما يطره من تراب لتلألاً وسطح وسحر بريقه التوهج القلوب والأبصار .

مضت الوزارة في سبيلها غير عابئة بصراخ أعدائها لا تتخاذل من دون غايتها ولا تستبعد الشقة ، وذلك على الرغم من أنها كانت لا تجاوز عقبة إلا قام في سبيلها عقبات

ولقد قبح الخديو في زوايا المزة ، وجعل النداردون الخوانون بينه وبين وزرائه حجاباً من الأباطيل التي أحكموا نسجها . والواقع أن الخديو لم يكن على شيء مما كان يجب أن يتصف به من يضطلع بأعباء الحكم في مثل هاتيك الظروف ، فلقد كان مستطار القلب حائر اللب مما يجري حوله ، فهو لا يسيغ الحركة الوطنية ولا يستطيع أن يصالح عليها طبعه ؛ وهو مستريب في نيات

يساق بين أقوى الأدلة وأنصمها على صحة مبدأ الفائلين بأن هذه المدنية المزعومة قد أفسدت بنى الإنسان فزادتهم قرباً إلى الحيوانية بقدر ما باعدت بينهم وبين ما كان يرجى للآدمية من سمو روحى ظل أمل الفلاسفة منذ أن أخذوا يحاولون التخلص من هذا الطين ويتزعجون بأبصارهم وأرواحهم إلى السموات

والحق لقد دل مسلك دعاة المدنية الأوروبية على مبلغ ما يمكن أن يصل إليه غدر الإنسان بأخيه الإنسان فى عصرنا هذا ، وما برح مثل عملهم هذا يوحى إلى ذوى الأحلام والآمال من البشر أن الإنسان لا يزال هو الإنسان ، وأنه إذا كان ارتقى فى شيء فى وسائل الكيد والبطش . أما غرائزه الأولى : غرائز السيطرة والأناية وحب التملك ، لا زالت بحيث لم يطرأ عليها أى تعديل ، أو سمو على الرغم مما يتبعجج به المثاليون والخياليون من حماسة الإنسانية . وإنا لنجد فى بيان مدى ما وصل إليه هؤلاء الساسة من انحطاط خيراً من أن نمرض السائلة فى وضعها الطبيعى البسيط وما كان من أمرهم إزاءها مكتفين بذلك عن كل تعليق عليها ، فما كان ليكلام أن يبين عما يتحرك فى الذهن ويعتلىج فى أطواء النفس أو يشقى القلب مما يحس من ألم وضيق أمام مثل ذلك العدوان الشنيع .

الانفجاف

" يتبع "

مما لأن ذلك العمل كان من شأنه أن يجبر فى أعقابها كثيراً من المشاكل

ولقد رأينا مبلغ تشدده فى وجوب إرسال المدكرة المشتركة المشؤومة ، ثم إصراره بعد ذلك على عدم تخفيف رقمها بلوى وجه من الوجوه . ولقد كانت كل من الدولتين تحرص على ألا تنفرد فتتكشف ، لذلك كانت تجارى إحداها الأخرى وإلها مستكرهة أشد الاستكراه وأقبحه ... وكانت إنجلترا تأخذ نفسها بالصبر حتى يحين الفرصة فتقتنصها

على أن غمبتا لم يلبث فى الحكم طويلاً فسقطت وزارته فى أول فبراير عام ١٨٨٢ أى قبل تأليف وزارة البارودى بخمسة أيام وحل محله فى الوزارة دى فريسنيه . وكان هذا من أول الأمر يرى فى المسألة المصرية ما لا يتفق وسياسة غمبتا ولكن الأمور كانت قد تخرجت فى مصر بما فعل غمبتا ، وفقدت العناصر الوطنية فى البلاد كما أشرنا كل ثقة فى الدولتين جميعاً حتى أصبح من أصعب الأمور التوفيق فى السياسة العامة وكان الإنجليز فى مصر يعملون جهد طاقهم لحساب دولتهم حتى إذا حانت ساعة العمل لم يكن بينهم وبين فريسنيه حائل ؛ ولقد ظفروا متربصين بمصر بعد أن نجحت وزارة البارودى فى حل مسألة الميزانية ينتظرون أن تواترهم فرصة فيعملوا على تنفيذ ما يبتغوا وأخيراً وقع فى مصر حادث ما نظن فى تاريخ الاستعمار الأوروبى كله أن استغل حادث كما استغل - فى تبسج ما بملء قبح - ذلك الحادث على بعد ما بينه وبين السياسة العامة للبلاد ، وذلك هو حادث المؤامرة الجركمية المشؤورة

نمى إلى عرباى وزملائه أن فريقاً من الضباط الجراكسة فى الجيش ياتعمرون به وأصحابه ليقتلوا فكان أن ألقت الحكومة القبض عليهم كما يقضى بذلك واجبها وساقهم إلى المحاكمة فقصت فيهم قضاءها . وليس فى هذا الحادث فى ذاته ما يتصل بالسياسة العامة للبلاد بسبب من الأسباب . وما كانت أية وزارة تستطيع أن تسلك فيه سبيلاً غير التى سلكته وزارة البارودى ، ولكن الكائدين للمقترين ما لبثوا أن ملأوا الدنيا صياحاً وتنديداً وتهديدات ووعيداً ، ونسوا كل شيء إلا تحقيق أطعاهم من وراء هذا الحادث ، فكان من أقوالهم وأفعالهم ما هو حقيقى بأن يسم تاريخ أى شعب من الشعوب بحسب العار والخزى ؛ بل ما هو خليق بأن

وزارة الأوقاف

إعلان

تقبل العطاءات بمكتب الميزانية والمشتريات لغاية ظهر ٢٧ الجارى عن تطهير حوالى ٦٣٨ ألف متر مكعب بفروع الوزارة المختلفة ويمكن الحصول على الشروط والمواصفات من خزانة الوزارة نظير ١٥٠ مليم وكل عطاء لا يقدم معه تأميته الابتدائى لا يلتفت إليه